محاضرة الأولى:
ماهية تحليل الخطاب السردي

تمهيد:

ارتأينا في البداية تقديم بعض المفاهيم النظرية التي تتعلق أساسا بمفهوم تحليل والخطاب والسرد، وما يتعلق بهذه المفاهيم التي اختلف حولها النقاد وأسهبوا في الحديث عنها، لذلك يصعب وضع مفهوم محدد جامع لها.

ولعل هدفنا من خلال هذه الوقفة هي التمهيد لما سيأتي من قضايا تخص الخطاب السردي، وتبسيط المفاهيم والمصطلحات بوضع تصور متكامل عن التأسيسات النظرية الكبرى له، والتي سيجد الطالب نفسه ملزما بالعودة إليها منهجيا، لفهم السياق الذي نشأت فيه، وعليه يمكن فهم باقي العناصر التي تتفرع منه.

يتكون مقياس الخطاب السردي من ثلاثة مصطلحات وهي تحليل والخطاب والسرد، سنحاول التكلم عن كل عنصر على حده ثم تناوله كعنصر مركب:

1 مفهوم التحليل (Anaiyse):

لابد للإشارة بأنه لا توجد مبادئ، أو قواعد ثابتة لتحليل النص الأدبي، فعملية التحليل هي مقاربة فقط تحاول القبض والإمساك بجمالية النص الأدبي. فالناقد يحاول أن يتجاوز حدود النص بالاعتماد على عملية الهدم والبناء أو الاقتطاع والترتيب، بمعنى التوقف عند كل جزء من أجزاء النص، والنظر إليه على أنه بنية متكاملة، ثم دراسة علاقة الجزء بالكل، ودراسة النص كبينة مستقلة من جهة، ثم علاقة هذا النص بالعالم الخارجي من جهة أخرى، والهدف من هذا التحليل هو الكشف عن جمالية النص وما يتركه من أثر في المتلقي.

2 مفهوم الخطاب (discours):

تعددت الآراء النقدية حول تعريف الخطاب، فالمعنى العام لمفهومه ينحصر في الكلام بين اثنين بوساطة شفهية أو مكتوبة، كطرق للتواصل الإنساني، ويعني الخطاب" ذلك الفعل الحيوي لإنتاج ملفوظ ما بواسطة متكلم معين في مقام معين، وهذا الفعل هو عملية التلفظ"[1].

وأصبح متداولا وشائعا في مجموعة الحقول النظرية النقدية والفلسفية وعلم الاجتماع " فهو ممارسة عملية التلفظ يفضي إلى تعدد الخطابات وتنوعها وتباين مهامها، ابتداءً بالمشافهات اليومية وصولا إلى أعقد الخطابات صنعة وعناية بالشكل والأسلوب"[2].

وعلى العموم فالخطاب يمثل نشاطا فكريا له علاقة بالجانب الثقافي، حيث أصبحت معاني الخطاب متداولة بكثرة في الأوساط الثقافية وتؤدي معاني لم تكن معروفة من قبل تحمل خصائص ومميزات كل عصر، فهو " منظومة معرفية تتمثل في جملة من النصوص والملفوظات والإجراءات التي يستخدمها الأفراد وتسهم في تشكيل وعيهم وصورة العالم والعلاقات فيه"[3].

---

[1] - سعيد يقطين: تحليل الخطاب الروائي، (الزمن، السرد، التبئير)، المركزالثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 1997 ، ص 18.

[2] - نضال الشمالي: الرواية والتاريخ، دار الكتاب العالمي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2006، ص 22.

[3] - المرجع نفسه، ص 31.

أي أن الكلام تتنوع فيه الخطابات وذلك حسب اختلاف موضوع الخطاب بألفاظ معينة وبأسلوب مميز قصد التأثير والإقناع، وبهذا يكون نقطة التقاء وتقاطع عدة معارف ودراسات.

أما في المفهوم اللساني فيمكن القول أن مفهوم الخطاب حديث النشأة، من القاعدة اللسانية الأولى، وهي دراسات سوسير، ومن الملاحظ أن أغلب النقاد الذين خاضوا مجال البحث في هذا المجال كانوا من تلامذته وممن تأثروا بأعماله كـ: هاريس وإيميل بنفنيست وباتريك شارودو وغيرهم.

لقد تجاوز هاريس (Haris) في دراسته الجملة إلى تحليل الخطاب في كتابه الذي ألفه عام 1952م بعنوان " **تحليل الخطاب**" ورغم محاولاته هذه إلا أنه ظل مقيدا بالدراسات اللسانية في إطار البنيوية التوزيعية " إذ يقوم الدارس بتقطيع النص إلى عناصر تركيبية مجتمعة في طبقات متعادلة، تتكون هذه الطبقة من مجموعة العناصر التي تستطيع أن تظهر في سياق متطابق أو متشابهة، فالتحديد يريد لنفسه أن يكون نحوا محضا"[1]، فهاريس يعتبر الخطاب مجموعة من الجمل لها معنى.

ويعد إميل بنفينيست (E. Benveniste) من أبرز الذين أسسوا لمصطلح الخطاب بعد " زاليغ هاريس"، إذ يعتبر الخطاب هو الفعل الحيوي لإنتاج ملفوظ ما لمتكلم ما في مقام ما، وهكذا نجد أننا أمام تنوع وتعدد الخطابات الشفوية، كما أنه يحاول توسيع مفهوم الخطاب عند تمييزه بين السرد والخطاب.

و إلى جانب الخطابات الشفوية نجد أيضا الخطابات المكتوبة التي تعيد إنتاج الخطابات الأولى، وباختصار كل الأنواع التي يتوجه فيها المتكلم إلى المتلقي، فيجد نفسه أمام خطاب أكثر صنعة وزخرفة من أجل الاقناع و التأثير بصورة ما، وبناءً على ذلك فهو يرتكز على العلاقة الجدلية بين الملفوظ والتلفظ.

و يعني بالتلفظ الفعل الذاتي في استعمال اللغة الفردية في كل الظروف و الحالات،

وعليه يكون " بنفنيست" قد تجاوز ثنائية سوسير الأساسية (اللغة / الكلام)، اذ يتعدى تحليل الخطاب كبنية لغوية مغلقة إلى طريقة إنتاج هذا الخطاب وكيفية تأديته والظروف المحيطة به.

يعد "ميشال فوكو" (Michel. Foucault) من مؤسسي مفهوم الخطاب، لاسيما كتابية (حفريات المعرفة) و(نظام الخطاب)، فالخطاب عنده هو " شبكة معقدة من العلاقات الاجتماعية والسياسية والثقافية، التي تبرز فيها الكيفية التي ينتج فيها الكلام كخطاب ينطوي على الهيمنة والمخاطر في الوقت نفسه"[2]. أما باتريك شارودو (P.charaudeau) يؤكد على أن الخطاب ما تكوّن من ملفوظ وموقف تواصلي.

ويعطي بعضهم للخطاب معاني أخرى لما يجعله مرادفا لـ" النص" ومن هؤلاء غريماس (J.Griemas)، بالنسبة له هما لفظتان مترادفتان تشتركان في المعنى ويشير إلى الخطاب والنص تستعملان للدلالة على ممارسات خطابية أخرى غير لغوية كالأفلام والقصص المصورة وغير ذلك.

ونظراً لتعدد مدارس واتجاهات الدراسات اللسانية الحديثة فقد تعدّدت مفاهيم ومدلولات هذا المصطلح ، نورد بعضها فيما يلي :

---

[1] - سعيد يقطين: تحليل الخطاب الروائي (الزمن، السرد، التبئير)، ص 17.

[2] - ميجان الرويلي، سعد البازغي: دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2000، ص 89.

أ-خطاب : مرادف المفهوم السوسيري "كلام" ، وهو معناه المعروف به في اللسانيات البنيوية .

ب – الخطاب ما دام منسوبا إلى فاعل فهو يشكل وحدة لغوية تتجاوز أبعادها الجملة ، رسالة أو مقول. بهذا المعنى يلحق الخطاب بالتحليل اللساني و هو مجموع قواعد تسلسل وتتابع الجمل المكوِّنة للمقول، وأول من اقترح دراسة هذا التسلسل هو اللغوي الأمريكي **"هاريس"**.

ج- الخطاب حسب "بنفينيست" هو كلّ مقول يفترض متكلما ومستمعا تكون لدى الأول نية التأثير في الثاني بصورة ما .

وخلاصة القول، أن الخطاب هو كل مجموع له معنى لغويا كان أم كتابيا وتختلف أبعاد هذا المجمع من حالة إلى أخرى، فقد يكون الخطاب جملة واحدة أو مفردة أو نصا كاملا، وفي الوقت نفسه تختلف مضامينه وأبعاده الدلالية، و هو في كل الحالات يخضع لقواعد تنظمه وله غايات تبليغيه ومفهومية الذي يفترض وجود قطبين مرسل ومتلقي تكون القناة بينهما سليمة وواضحة لبلوغ الهدف ولضمان أقصى حد ممكن من المقروئية لهذا الخطاب.

3 - السرد (la narration):

يستغرق السرد مساحة كبيرة في حياة الإنسان منذ القدم، وذلك بوصفه أداة تعبيرية حاضرة في اللغة الشفوية والمكتوبة، ومنه انحدرت كل الأجناس الأدبية،" فالسرد هو الذي يعتمد عليه في تمييز أنماط الحكي بشكل أساسي"[1].

والسرد يكون وفق عملية سردية، حيث تتحقق هذه العملية بوجود ثلاثة عناصر وهي الراوي والقصة والمروي له، وذلك لأن " السرد يعرض لنا قصة ما، وأن القصة هي تتابع أحداث تستلزم شخصيات، لذا فإن السرد هو وسيلة اتصال تعرض تتابع أحداث تسببت فيها أو جربتها الشخصيات"[2].

فالسرد هو الكيفية التي تروي بها القصة والتي تخضع لمؤثرات بعضها متعلق بالراوي narateur أو المروي له narrataire وبعض أخر متعلق بالقصة نفسها، لذلك نشأ علم خاص بالسرد هو" علم السرد" (Narratologie) او " السرديات أو علم قواعد السرد أو السردية" وهي كلها مصطلحات يقصد بها تحليل مكونات المحكي وألياته واستنباط الأسس التي يقوم عليها.

و لقد أسهم في تشكيل علم سرد أعلام كثيرون نذكر منهم: (تودوروف، بارث، جيرار جنات، جرالد برانس، شارل، فردمان...)، ليكون علم السرد من أهم فروع النقد البنيوي، ويعد تودوروف (الناقد الشكلاني) هو أول من ابتكر هذا المصطلح (narrataire) سرد.

وقد نقل هذا المصطلح إلى العربية بمسميات كثيرة _ كما ذكرنا سابقا_ وهي على العموم" تدرس النصوص الحكائية قصد استنباط مجموع الأجهزة الشكلانية، التي تمثل النواة المولدة لمختلف أشكال الخطابات القصصية أو يعني هذا أنها منهجية هيكلية structurale لها أكثر من علاقة بمشكلة المعنى أو دلالية semantique "[3].

---

[1] - حميد لحمداني: بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط 3، 2003، ص 45.

[2] - آمنة يوسف: تقنيات السرد في النظرية والتطبيق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت – لبنان، ط2، 2015، ص 28.

[3] - سمير المرزوقي، جميل شاكر: مدخل إلى نظرية القصة، الدار التونسية للنشر، تونس، (د.ط)، 1985، ص 18.

لذلك يربط الدارسون هذا العلم بظهور الرواية من جهة وبأشكال سردية قديمة غير الرواية من جهة اخرى، فالسرد أو السردية لاشك في أنها مرتبطة بالواقع وهي ملتصقه به أشد الالتصاق، ونجد المعنى قريبا من هذا الفهم عند امبرتو إيكو (umberto Eco) الذي جعل مفهوم السرد رديفا للحياة.

فهذه النصوص تقول أكثر مما نعيه؛ لذلك فالعالم المتخيل يقع بين الواقع و اللاواقع؛ لذلك يفرق امبرتو إيكو بين نوعين من السرد، الأول طبيعي والثاني اصطناعي، والفصل بينهما غير نهائي وهذا يتعلق بالراوي وأفكاره، هل يعتمد في النص على الواقع أم أنه انطلق من الواقع ورسم متخيلا على انقاضه، وهذا النوع من الكتابة تتعلق بأيديولوجية الكاتب ورؤيته للعالم وطريقة تناوله للمضامين.

4 الخطاب السردي:

التحليل السردي للخطاب هو الذي يتخذ من النصوص السردية موضوعا له، وهو في الحقيقة تعود جذوره إلى الشكليين الروس بصفة عامة في إطار بحثهم في أدبية الأدب، فالسرد يعد أهم مبدأ تقوم عليه نظرية النثر الروائي.

ويعد " **فلاديمير بروب"** (v.propp) من المؤسسين في هذا المجال، في دراسته لمائة حكاية روسية عجيبة، وقد وضحها في كتابة (بنية الحكاية روسية عجيبة) الذي كان فتحا للتحليل البنيوي للخطاب السردي خاصة على مستوى الوظائف.

و سار على منواله كثيرون من أمثال كلود ليفي شترادوس، ورومان جاكسون، كما تلاحقت بعد ذلك الكتب والمقالات لبناء هذا النوع من الدراسات(علم السرد) والذي ازداد تميزا مع **"جيرار جنات"** (Gerrard gennette)، فالخطاب السردي هو الأساس " لدارسة العلاقات بين الحكاية والقصة وبين الحكاية والسرد وبين القصة والسرد"[1]، وعلى هذا الأساس يتداخل الخطاب مع فنون الأدبية الأخرى من حكاية سرد وقصة، فيقترح تقسيما جديدا معتمدا على آراء تودوروف (T.Todorrov):

- "القصة بوصفها حكاية la recital comme history.
- القصة بوصفها خطابا la recital comme dixours"[2].

فالقصة بوصفها حكاية تتطلب مجموعة من الأحداث وتكون مترابطة وفق تسلسل منطقي، أما القصة بوصفها خطابا يكون التعامل معها بشكل مختلف عن الأولى، لأنه يهتم بطريقة تقديم الأحداث.

وعلى العموم، فإن الخطاب في المفهوم السردي ينحصر بين الخطاب والسرد والحكاية، وهو يتحدد بمادته(الكلام أو الكتابة) ويتحدد بشكله، فالخطاب الروائي، والخطاب القصصي أو الخطاب السيري و الأسطروي... كلها خطابات تندرج ضمن الخطاب السردي، ومن المفيد القول أن ما يصبو إليه التحليل السردي للخطاب هو الخصائص السردية الجمالية للخطاب الأدبي أو ما يسمى سردية النصوص السردية، وهي فرع من فروع الشعرية تهتم " بخصائص هذا الخطاب النوعي الذي هو الخطاب الأدبي"[3].

---

[1] - جيرار جنات: خطاب الحكاية بحث في المنهج ، ترجمة: محمد معتصم و عبد الجليل الازدي و عمر الحلي، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط3، 2003، ص 45.

[2] - عمر عميلان: في مناهج تحليل الخطاب السردي، مطبعة اتحاد كتاب العرب، مكتبة الأسد، دمشق، سوريا، دط، 2008، ص 85.

[3] - تودوروف: الشعرية، ترجمة: شكري الميخوت ورجاء بن سلامة، دار توتقال للنشر، الدار البيضاء ، المغرب، ط2، 1990، ص 23.

و بناءً على تقدم، يمكن القول أن السرديات هي نوع من المقاربة المجردة والتطبيقية في الوقت نفسه، تهدف إلى استنطاق خصائص الخطاب السردي في إطار ممنهج انطلاقا مما أسسه النقاد السرديون أمثال جيرار جنيت وتودوورف ورولان بارث وغريماس وغيرهم من الذين قدموا دراسات جادة في تحليل الخطاب السردي، ليتفرع إلى اتجاهات أخرى كان لها الدور الكبير في تطور هذا المجال كالسرديات اللسانية والسرديات البنيوية والسرديات السيميائية، كما اهتم النقاد بمكونات الخطاب السردي التي يتشكل منها السرد وبعلاقتها مع بعضها بعض كبنيات أساسية، لتشكل هيكل النص في كليته كآليات اجرائية حددها السرديون كالبينة: الزمنية والمكانية والشخصية بالإضافة إلى أهم المقولات البنيوية: (الصيغة والصوت زوايا الرؤية)، دون أن ننسى أهم مكون سردي وهو المركب الثلاثي (الراوي والمروي له والمروي).

كان الهدف من البحث في هذه المكونات هو استكشاف بنيات النص الخاصة والعامة، وهكذا يمكن استنطاق خصائص الخطاب السردي الذي يختلف من كاتب إلى أخر باختلاف الظروف الاجتماعية والنفسية والطبيعية وغير ذلك، مستفيدين من النموذج اللساني والمنهج البنيوي كونهما يمثلان المرجعية الأساس لهذه الدراسة، بالتركيز على ما هو واقع فعلا في النص من جهة للوصول إلى القانون العام الذي يمثل الجانب الجمالي في كل نص سردي، ويمكن أن نلخص مكونات الخطاب السردي(الأليات والمضامين) في المخطط الآتي:

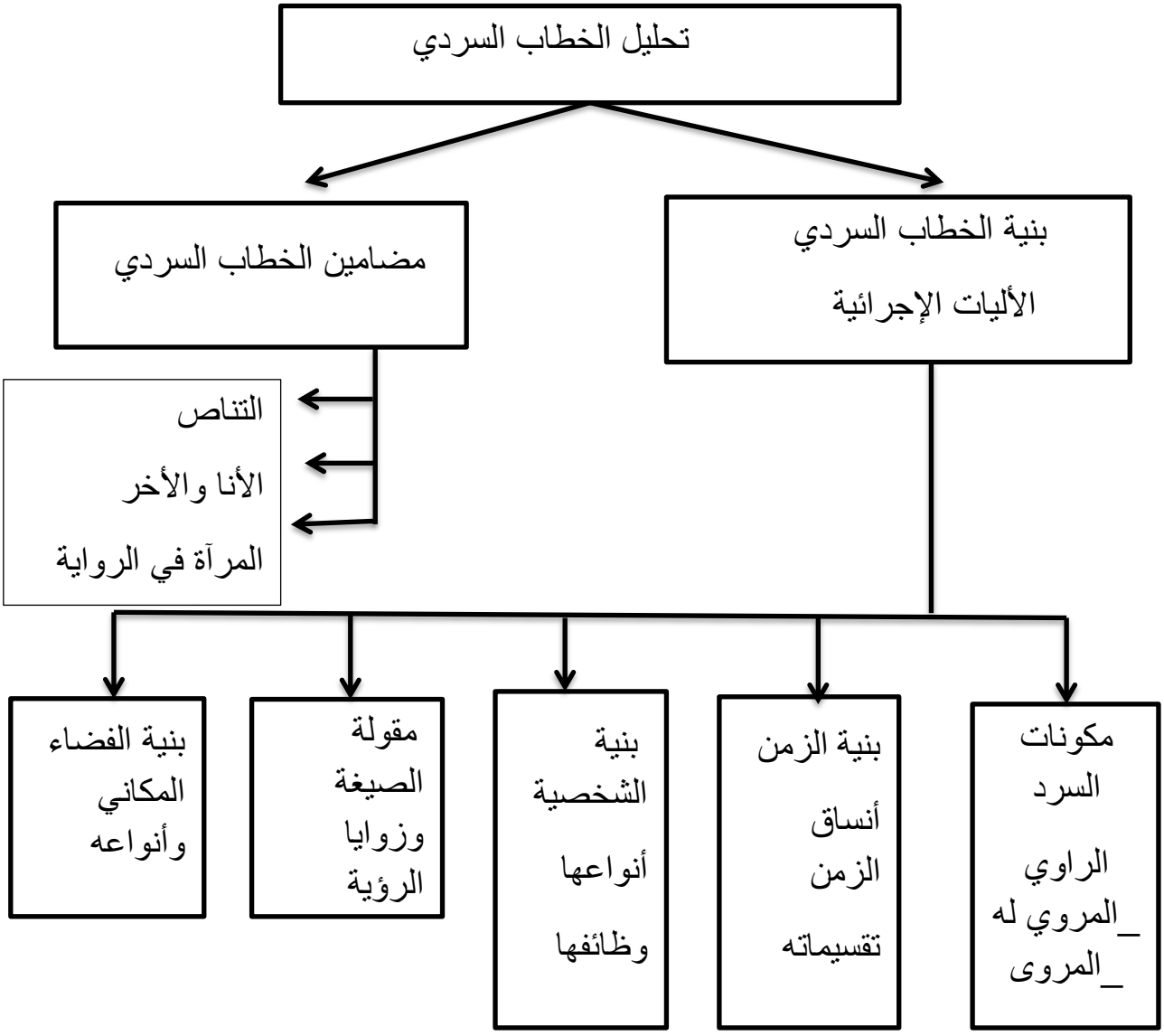

المخطط1: مكونات الخطاب السردي على مستوى الآليات والمضامين